

# سبل الارقاء بالتعليم الديني لتحقيق التقارب بين الشعوب

## (قراءة في تجربة إصلاح التعليم الديني بتونس)

ez\_zitouna@yahoo.fr

أ. د سالم بوحبي

رئيس جامعة الزيتونة (تونس)

يسعدني أن أشارك في أعمال هذا المؤتمر المهم حول "دور الأديان في تنشئة الأجيال" ببحث عنوان: سبل الارقاء بالتعليم الديني لتحقيق التقارب بين الشعوب (قراءة في تجربة إصلاح التعليم الديني بتونس).

وسأحاول - في ما أتيح لي من وقت لإعداد البحث - تناول الموضوع من خلال العناصر التالية:

- أسس الارقاء والتحديث،
- سبل الارقاء بالتعليم الديني،
- تجربة إصلاح التعليم الديني بتونس.

### 1) أسس الارقاء والتحديث:

لقد عَبَر رجال الإصلاح منذ القرن التاسع عشر عن رغبتهم الجامحة في تغيير الواقع العربي الإسلامي بعد الاحتكاك بحضارة الغرب الناهضة التي حسمت أمرها في العديد من القضايا، وقدّمت للعالم مشاريع متكاملة أنتجت مؤسسات رائدة في مجالى العلوم والتكنولوجيا، وفي مستوى الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الأمر الذي جعلها تتفوق على مختلف الأصعدة.

وإذا كان الاحتكاك بحضارة الغرب أكبر حافز للدعوة الإصلاحية العربية والإسلامية مشرقاً ومغارباً، فإنّ ما شهدته الفكر العربي الإسلامي من مراجعة وإصلاح بدا أمراً ملاحظاً تدريجياً عبر النظر في مسيرة الإصلاح الداخلي ومن خلال مزيد الانفتاح على مشاريع التنویر ومناهج البحث في العلوم الإنسانية.

إنّ عملية التقدّم المنشود التي تقوم على الإبداع العلمي والمبادرة والريادة في جميع الحالات لا بدّ أن تمرّ عبر النقد الهدف لما ترسّب في الأذهان وما ترسّخ في العقول من أشكال تراتبية ما زالت تحيا بيننا إلى اليوم وتعيد إلى أذهاننا ملامح الشخصية التي تشكلت في عصور الانحطاط والتي ما زلنا نعيّن رواسبها ومن تبعات ممارساتها لأنّها كانت قد نحتت صورة العجز والتقوّق والتراءجع الحضاري في عديد الميادين، وخاصة في ميدان التربية والتعليم حيث يحتاج هذا المجال - باستمرار - إلى المراجعة والتقييم.

## فكيف نحقق المطمح المنشود في الإصلاح والمواكبة والتحديث مع المحافظة على الخصوصيات واحترام الذات والآخر؟

لقد فرضت العولمة تحديات اقتصادية واجتماعية جديدة وطرحت التساؤلات التالية حول النظم التربوية عموماً، والتعليم الديني خاصّة: ما هي ملامح الإنسان الذي سيكونه التعليم؟ وما هي القيم التي يجب أن يتحلى بها؟ وما هي الحاجة من إصلاح التعليم عموماً والتعليم الديني بوجه الخصوص؟ وكيف يمكن الارتقاء بالتعليم الديني شكلاً ومضموناً؟

### أ) مركزية المسألة الدينية في الفكر الإنساني:

إنّ المسألة الدينية تبدو على قدر كبير من الأهمية لأن الدين هو المترع الأكثـر عمـقاً في الإنسان فرداً وجـمـاعـةـ. وإذا كانت ماهيـتـهـ شـدـيدـةـ التـرـكـيبـ وـالـتعـقـيـدـ<sup>1</sup>ـ، فإنـ مـاهـيـةـ عـلـىـ هـذـاـ النـسـقـ منـ التـرـكـيبـ تـسـتـحـقـ أـنـ تـكـوـنـ مـوـضـوـعـاـ لـلـعـلـمـ وـمـحـالـاـ لـلـمـعـرـفـةـ.

ومن خلال مشهد العصر يمكن القول أنّ العلاقات بين الشعوب والثقافات والدول أصبحت مرتبطة إلى حدّ بعيد بالمسألة الدينية حيث بدا الدين عنصراً فاعلاً في العلاقات الدوليـةـ، فـتـرـيـتـ عنـهـ كـثـيرـ منـ المـوـاقـفـ.

### ب) دور الأديان في الارتقاء بالتعليم:

لقد اضطـلـعـ زـرـادـشـتـ<sup>2</sup>ـ مـنـ الـقـدـمـ بـدورـ المـعـلـمـ، فـكـانـ يـلـغـ لـأـتـيـاعـهـ وـحـيـ السـمـاءـ. وـقـامـتـ تعـالـيمـهـ عـلـىـ "ـالـدـيـالـكـتـيـكـ الـحـيـ"<sup>3</sup>ـ الـقـائـمـ بـيـنـ الـخـيـرـ وـالـشـرـ. كـمـاـ اـضـطـلـعـتـ مـعـابـدـ الـجـوسـ الزـرـادـشـيـهـ بـهـذـهـ الـلـهـمـةـ بـعـدـ غـيـابـ الـحـكـيمـ زـرـادـشـتـ. كـمـاـ كـانـ نـظـامـ "ـثـيـرـافـادـاـ"ـ (ـبـالـبـوـذـيـ يـوـظـفـ)ـ الـأـدـيـرـةـ لـتـعـلـيمـ الـرـهـبـانـ إـجـادـةـ الـقـرـاءـةـ وـالـكـتـابـةـ، وـيـكـنـهـمـ مـنـ مـهـارـاتـ تـعـلـقـ بـالـتـدـرـيـبـ عـلـىـ فـنـ الـعـلـمـ وـيـؤـمـنـ لـهـمـ تـعـلـمـ "ـالـتـقـالـيدـ الـأـدـيـةـ"<sup>4</sup>ـ؛ وـهـيـ الشـبـيـهـ بـمـاـ يـعـرـفـ فـيـ الـأـدـبـ الـدـيـنـيـ بـ"ـالـلـبـاقـاتـ الـصـيـنـيـةـ"<sup>5</sup>ـ الـمـعـبـرـةـ عـنـ آـدـابـ الـتـعـامـلـ مـعـ الـآـخـرـينـ. وـمـنـ الـمـعـلـومـ أـيـضاـ أـنـ الـيـهـוـدـيـةـ كـانـتـ تـجـرـيـ مـعـنـقـيـهاـ "ـعـلـىـ قـرـاءـةـ الـنـصـوـصـ الـمـقـدـسـةـ"<sup>6</sup>ـ. وـتـكـوـنـتـ مـؤـسـسـةـ "ـالـمـدـرـاسـ"ـ الـيـهـوـدـيـةـ الـتـيـ اـنـشـغـلـتـ بـإـيـجادـ ظـرـوفـ تـؤـمـنـ الـحـصـولـ عـلـىـ مـؤـهـلـاتـ تـعـلـيمـيـةـ عـالـيـةـ. وـقـدـ شـجـعـ الـيـهـودـ تـعـلـيمـ الـذـكـورـ وـاـمـتـلـاكـ الـمـهـارـاتـ الـعـقـلـيـةـ

<sup>1</sup>) السـواـحـ، فـرـاسـ، دـيـنـ الـإـنـسـانـ: بـحـثـ فـيـ مـاهـيـةـ الـدـيـنـ وـمـنـشـأـ الدـافـعـ الـدـيـنـيـ، دـارـ عـلـاءـ الـدـينـ، دـمـشـقـ، طـ 4ـ، 2002ـ، صـ 22ـ-29ـ.

<sup>2</sup>) زـرـادـشـتـ: هـوـ مـؤـسـسـ الـدـيـانـةـ الـزـرـادـشـيـةـ، عـاـشـ فـيـ الـرـبـعـ الـأـخـيـرـ مـنـ الـأـلـفـ الثـالـيـ، قـ مـ، وـقـدـ سـادـتـ دـيـانـتـهـ فـيـ الـإـمـرـاطـرـيـاتـ الـفـارـسـيـةـ إـلـىـ الـقـرنـ السـابـعـ مـيـلـادـيـ. لـزـيـدـ التـعـرـفـ عـلـىـ زـرـادـشـتـ وـدـيـانـتـهـ أـنـظـرـ: أـ، سـ، مـيـغـوـلـفـسـكـيـ، أـسـرـارـ الـأـلـمـةـ وـالـدـيـانـاتـ، تـرـجمـةـ، حـسـانـ مـيـخـاـئـيلـ إـسـحـاقـ، دـارـ عـلـاءـ الـدـينـ، دـمـشـقـ، سـوـرـيـاـ، طـ 2ـ، 2006ـ، صـ 86ـ-73ـ.

<sup>3</sup>) مـ.ـنـ، صـ 74ـ.

<sup>4</sup>) دـافـيدـ، سـوـفـيرـ، مـ.ـنـ، صـ 71ـ.

<sup>5</sup>) يـتـعـلـمـ الصـيـيـ الكـوـنـفـشـيـوـسـيـ مـنـ مـيـلـادـهـ الـإـتـرـامـ الـصـارـمـ بـالـلـبـاقـاتـ. أـنـظـرـ: مـيـغـوـلـفـسـكـيـ، مـ.ـنـ، صـ 296ـ.

<sup>6</sup>) دـافـيدـ، سـوـفـيرـ، مـ.ـنـ، صـ 71ـ.

المطلوبة لتفسير الشريعة<sup>7</sup>. كما أن الكنائس المسيحية كان لها دور هام في تشجيع التعليم، وكمثال على ذلك نذكر الدور الذي قامت به الكنيسة البروتستانتية حين فرضت على المسيحي المعرفة الشخصية بالإنجيل وباللغة الوطنية. وعلى إثر النجاح الذي حققه حركة الإصلاح المسيحية "أصبحت المجتمعات البروتستانتية وخصوصا الكلفيينية<sup>8</sup> ذات مقدرة تعليمية عالية، الأمر الذي ساعدتها بأن تكون رائدة للنمو الاقتصادي في شمال أوروبا".<sup>9</sup>

ولما جاء الإسلام بعد هذه الأديان كانت كلمة البدء فيه "أَقْرَأْ"، وكان مقاييس المفاضلة بين مدارك الأفهام "العلم". جاء في سورة الرّمٰضان "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ". وقد استوعب الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الوعي فطلب الزيادة منه "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"<sup>10</sup>؛ وجلس صلى الله عليه وسلم في مسجده يعلم أصحابه الدين ويحثّهم على حفظ القرآن وتدوينه<sup>11</sup>. ثم تمتّلت أمّته من بعده ثقافة العلم فتمّت المواءمة بين مستوى العبوديّة ومستوى التعليم. ولا تصحّ عبادة تؤسّس على الجهل. واتّضح نظام التلقّي وتوزّع ما يقدّم للطلبة من معارف على مراحل، حيث أصبح التعليم على ثلاثة درجات: ابتدائي ومتّوسط وعالي<sup>12</sup>.

ولنا أن نتساءل: في أيّ سياق يمكن الارتقاء بالدرس الديني؟ وأيّ تواصل يحدّثه الدرس الديني مع إنسان القرن الحادي والعشرين ومشاغله؟

## 2) سبل الارتقاء بالتعليم الديني:

### أ) احترام الإنسان:

إنّ أي درس ديني يُعْنِي قيمة احترام الإنسان، هو درس لا يمكن الثقة به. وإنّ الخطاب الديني الذي يُحرّقُ من الإنسان هو خطاب لا يمكن أن يُنمّي التواصل بين البشر على مقتضى الاحترام. إنّ جميع الأديان ترفض هذا المنطق. وقد عبر القرآن عن نقاء هذا الأصل الديني وصفاته بقوله: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا".<sup>13</sup>

<sup>7</sup>) م.ن، ص.ن.

<sup>8</sup>) نسبة إلى جون كالفن، (1509-1564) أحد رواد حركة الإصلاح التي عرفتها المسيحية والذي يعتبر المنظم الفعلي للكنيسة الإنجيلية البروتستانتية. انظر: رقيه، العلواني وآخرون، مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 1، 2008، ص 191-199. وانظر زيغور علي، المسيحية، الموسوعة الفلسفية العربية، المدارس والمذاهب، والاتجاهات والتيارات، معهد الإنماء الغربي، المجلد الثاني، ط 1، 1988، ص 1262.

<sup>9</sup>) دافيد، سوفير، م.ن، ص 71.

<sup>10</sup>) ط، 111.

<sup>11</sup>) ابن عاشور، محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب، دار سحقون للنشر والتوزيع، تونس، ط 1، 2006، ص 24.

<sup>12</sup>) م.ن، ص 87.

<sup>13</sup>) الإسراء، 70.

إنَّ هذا التوجيه القرآني يحصننا ضدَّ أنْ يعود الدين إلى الساحة العالمية في صورة المكتوب المتقن. إنَّ المتدين الصادق هو الذي يتمثَّل بصدق، ويعيش بكلٍّ حضور قول القرآن "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"<sup>14</sup>. وهو الذي يتفاعل مع ما جاء في إنجيل يوحنا من حديث "عن بيت الله ذي المنازل المعددة".<sup>15</sup>

إنَّ احترام الإنسان هو السبيل إلى احترام فكر الآخر ودينه لأنَّ أول مقاصد الدرس الديني يتمثَّل في آنه يوقظ في وعي الإنسان النفور من كل ما يسبِّب الأذى للآخرين. وقد استرشد نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم "هذا المبدأ مثلما فعل المسيح قبله (...)" إذن لم تكن المهمة تقوم في الإيمان وحسب، إنما في إحداث تغيير جدِّي في نمط العيش برؤمه وفي إتخاذ موقف آخر تجاه العالم المحيط وتجاه الآخر، ففي هذه بالذات كان يقوم جوهر الإيمان، ولهذا بالذات يُعدُّ الإيمان والدين المرتكز الروحي للمجتمع".<sup>16</sup>

#### ب) ترقية الجانب الاجتماعي:

إنَّ الإنسان الذي صدَّق باحترام غيره يكون قد تهيأً لروح الاجتماع. وهي روح تمنها الأديان جميعاً وتدعوا إليها، وتعمل على ترسيخها في وعي الإنسان. ففي صميم كلِّ دين حنونٌ خاصٌ على الإنسان وتواصل معه "تواصلاً رمزاً متنظِّماً عبر الشعائر والمعتقدات".<sup>17</sup> والذي ترَجَّح لدينا بعد استقراء نصوص تأسيسية لأديان عديدة يُبيِّنُ عن كون الأديان ترغب في خطابة الجمع وتنوه بالجماعة. فهي - الأديان - تدعوا إلى الاجتماع في المعابد للصلوة وترغبُ في الطقوس الجماعية وتعلُّم من شأنها و يجعلها أكثر بركة وصدقاً وأعظم أجراً عند الله وأفعى للناس. كما سنت الأديان الاحتفالات الدينية الموسمية والسنية، والحاصل أنَّ مقصد الأديان من كلِّ هذا هو تنمية الروح الاجتماعية في الإنسان.

إنَّ الوازع الديني يتماهي مع ما هو اجتماعي بسرعة فائقة حيث يُسهل بناجح أيَّ نشاط اجتماعي تُديره الجماعة وترغبُ في تحقيقه، ويكون التبرُّع أو الإيثار أو التعاون أكثر فاعلية عندما يصدر عن وازع ديني. إنَّ الدين بحسب هذه الاعتبارات والدلائل سيلغى الاستعلاء والتمييز ولكنه لن يلغى الاختلاف<sup>18</sup>. وقد عبر جون ديون (John Dunne) عن هذا المعنى بقوله: "إنَّ رجل الدين في زماننا لا يشبه (...) المسيح أو محمد في قدرته على تأسيس دين عالمي ولكنه يشبه شخصاً مثل

<sup>14</sup>) الأنبياء، 106.

<sup>15</sup>) يوحنا، 14/2.

<sup>16</sup>) ميغولفسكي، م، ن، ص 526.

<sup>17</sup>) ويليام، جان بول، الأديان في علم الاجتماع، ترجمة بسمة بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 2001، ص 185.

<sup>18</sup>) السبحاني، جعفر، اتجاهات العقلانية في الكلام الإسلامي، ص 30.

غاندي ينتقل من دينه إلى أديان الآخرين عبر التفهم والتعاطف ثم يعود وقد اكتسب رؤية جديدة لدینه وهكذا يدو أن الذهاب إلى الأديان الأخرى والعودة هو مغامرة هذا العصر الروحية<sup>19</sup>.

وجملة القول فإن معنى "الحن" يعود في النهاية إلى المعنى الذي عبر عنه القرآن بمصطلح الناس. كما يعود معنى "الحن" أيضاً إلى ما ذكره "مارتن لوثر كينغ"، عندما تحدث عن العالم كبيت كبير ورثاه جميعاً و"علينا أن نعيش فيه معاً ب ايضاً وسوداً، شرقين وغربين، يهودا وأحراراً، كاثوليكين وبروتستانت، مسلمين وهندوس"<sup>20</sup>.

#### ج) التمسك بالأخلاق:

إنّ الأديان تدعو إلى تنقية وعي الإنسان من الأفكار السيئة الرديعة، وإلى تحرير سلوكه من الأعمال المرذولة القبيحة. وإذا وجدت نصاً دينياً فيه خطاب ينافق الفضيلة تصريحًا أو تلميحاً فاجزم أنه من فعل كتبة محريفين أو من فعل كهنة مزيفين مهووسين. أو هو نص منحول مدسوس بفعل يد السياسة. إنّ المشهد الداخلي لنصوص الأديان مفعم بالملوّعات الأخلاقية، لأنّ الأخلاق هي الجوهر الذي به وعلى أساسه يكون معنى الأدبية أو معنى الإنسانية. إذ لا تتصور هوية الإنسان من دون أخلاق. فالإنسان كائن أخلاقي، حتى أنّ "الذى يسبق إلى الذهن من استعمال هذا اللفظ - (إنسان) - ليس معنى امتلاك الكائن البشري للقوّة العقلية وإنّما معنى امتلاك الكائن البشري للقوّة الخلقيّة بحيث يحصل له من الإنسانية بقدر ما يحصل له من صالح الأخلاق"<sup>21</sup>. ذلك أنّ الفعل العقلي - التعقل - يعود إلى صميم الأخلاق ومنه تسمية العقل بالتهي لأنّه ينهى عن القبيح من الفعل<sup>22</sup>. وقد قيل أنّ العقل يعقل النفسَ عن متابعة الهوى كما يمنع العِقالَ الدابةَ من مرتعها ومُرعاها<sup>23</sup>. إنّ التعقل إذن - لا سيما في سياق الفكر الإسلامي - موصول بالأخلاق مرتكن لها لا ينفك عنها. وإنّ الفعل العقلي قيمة خلقية أو لا يكون. إنّ ميزة الإنسان الأخلاقية هي الأقدر "من غيرها على صنع هوية الكائن البشري"<sup>24</sup> أينما كان زماناً ومكاناً.

#### د) البعد العملي للأخلاق :

<sup>19</sup>) دافيد، س، سكوت، دور الخيال في التعديلية الدينية، كتاب الحياة الطيبة، عدد 5، بيروت، لبنان، ط 1، 2004، ص 177 .  
<sup>20</sup>) م.ن، ص 174، نقلًا عن:

- Martin Luther King, Jr,... Where do we go from here : Chaos or community? Boston, Bacon Press,  
1967, p. 167.

<sup>21</sup>) عبد الرحمن، ط، الحق العربي في الاختلاف الفلسفى، المركز الثقافى العربى، ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص 147. أظر أيضًا:  
الرازى، محمد ابن أبي بكر، مختار الصحاح، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د.ت، ص 35.

<sup>22</sup>) الرازى، م.ن، ص 56.

<sup>23</sup>) الترمذى، الحكيم، بيان الفرق بين الصدر والتقلب والفواد واللّب، مطبعة الملى، القاهرة، 1958، ص 76.  
<sup>24</sup>) م.ن، ص 157.

يستطيع أي قارئ لنصوص الكتب المقدسة، أن يعرف بأن الأديان حرمـت القتل والاعتداء والعنف والغصب والسرقة والزنا. كما حرمـت الحسد والحدق، وال默ـر السيء والخداع والنفاق والكذب والظنـ الخبيث والكلمة المؤذية. ولكنـها أوجـبت بـرـ الوالدين وحسن الجوار واحترام كبار السن ورعاية الأطفال، ورغـبت في التعاون والتضامن والعطف، فنوهـت بالتواصل الإيجـابي مع الضعـفاء والاحتاجـين كالأرامل والفقـراء واليتامـى.

كما يستطيع المتأمل في النصوص الدينـية أن يلاحظ أنـ هذه الأوامر والنوـاهـي والمواعـظ الأخـلاقـية، يـجـمعـها خـيطـ نـاظـمـ يـتمـثلـ فيـ نـهيـ الأـديـانـ عنـ "ـالـشـرـ". قالـ المـسيـحـ عـلـيـهـ السـلـامـ "ـلاـ تـقاـومـواـ الشـرـ"<sup>25</sup>؟ـ بـعـنىـ لاـ تـقاـومـواـ الشـرـ بـالـشـرـ فإنـ ذـلـكـ سـبـيلـ إـلـىـ تـكـثـيرـهـ وـتـضـخـيمـهـ بلـ "ـأـحـبـواـ أـعـدـاءـكـمـ وـبـارـكـوـاـ لـاعـنـيـكـمـ،ـ أـحـسـنـواـ إـلـىـ مـبغـضـيـكـمـ وـصـلـوـاـ لـأـجـلـ الـذـينـ يـسـيـؤـونـ إـلـيـكـمـ وـيـطـرـدـونـكـمـ لـكـيـ تـكـوـنـواـ أـبـنـاءـ <ـأـيـكـمـ>ـ الـذـيـ فـيـ السـمـاـواتـ فـإـنـهـ يـشـرـقـ شـمـسـهـ عـلـىـ الـأـشـارـ وـالـصـالـحـينـ،ـ وـيـمـطـرـ عـلـىـ الـأـبـرـارـ وـالـظـالـمـينـ"<sup>26</sup>.

وفي نفس هذا السـيـاقـ جاءـ فيـ القرآنـ الـكـرـيمـ ماـ يـدـعـمـ هـذـهـ الرـوـحـ،ـ وـماـ يـؤـكـدـ هـذـاـ التـوجـيهـ.ـ قـالـ تـعـالـىـ "ـوـلـاـ تـسـتـوـيـ الـحـسـنـةـ وـلـاـ السـيـئـةـ إـدـفـعـ بـالـتـيـ هـيـ أـحـسـنـ فـإـذـاـ الـذـيـ يـبـيـنـكـ وـبـيـنـهـ عـدـاـوـةـ كـائـنـهـ وـلـيـ حـمـيـمـ وـمـاـ يـلـقـاـهـاـ إـلـاـ الـذـينـ صـبـرـوـاـ وـمـاـ يـلـقـاـهـاـ إـلـاـ ذـوـ حـظـ عـظـيمـ"<sup>27</sup>.ـ إـنـهـ أـخـلـقـ الـإـحـسـانـ وـهـيـ صـعـبةـ عـلـىـ النـفـسـ الـتـيـ لـمـ تـكـتـمـ تـرـيـيـتـهـاـ الرـوـحـيـةـ.ـ إـنـ هـذـاـ المـقـامـ يـحـتـاجـ إـلـىـ تـرـسـيـخـ قـوـةـ الرـوـحـ.ـ لـأـنـ نـكـرـانـ الـذـاتـ أوـ مـاـ سـمـتـهـ الـأـديـانـ بـالـإـحـسـانـ أوـ الـإـيـثـارـ،ـ إـنـمـاـ هـوـ قـيـمـةـ "ـتـعـلـقـ بـدـرـجـةـ غـمـوـ الرـوـحـ وـالـإـنـسـانـ الـقاـصـرـ رـوـحـيـاـ"<sup>28</sup>ـ لـاـ يـسـتـطـعـ الإـيـثـارـ.

### هـ) تـحـقـيقـ الـوـفـاقـ مـعـ الـآخـرـ:

إـنـ الـقـنـاعـةـ الـتـرـبـوـيـةـ تـحـتـاجـ إـلـىـ تـرـيـيـتـهـ رـوـحـيـةـ تـوـصـلـ فـيـ الـذـاتـ الـعـارـفـةـ مـهـارـةـ عـمـلـيـةـ تـبـعـ منـ الـقـلـبـ،ـ وـتـؤـمـنـ بـجـوـهـرـ "ـثـقـافـةـ الـإـنـسـانـ"ـ بـحـيثـ يـسـتـمـعـ الـمـخـتـلـفـوـنـ إـلـىـ بـعـضـهـمـ بـصـدـقـ إـنـسـانـيـ.ـ أـيـ بـأـذـنـ وـاعـيـةـ وـعـقـلـ يـقـظـ وـاحـتـرـامـ كـامـلـ.ـ فـمـبـداـ الـاسـتـمـاعـ إـلـىـ الـآخـرـ لـيـسـ مجـاـمـلـةـ عـابـرـةـ أوـ لـيـاقـةـ "ـدـيـلـوـمـاسـيـةـ"ـ أوـ مـنـاوـرـةـ نـفـاقـ.ـ بـلـ هـوـ مـهـارـةـ نـابـعـةـ مـنـ الـقـلـبـ تـبـذـ التـكـبـرـ وـتـرـفـضـ اـسـتـعـمالـ "ـتـقـنيـاتـ التـحـقـيرـ"ـ.ـ فـالـمـسـأـلةـ هـنـاـ لـاـ تـحـتـاجـ إـلـىـ الـذـكـاءـ فـقـطـ بـلـ تـحـتـاجـ أـيـضاـ إـلـىـ الـقـيـمـ.ـ أـمـاـ الضـابـطـ الـعـلـمـيـ الـمـنهـجـيـ فـيـحـتـاجـ إـلـىـ نـسـقـ إـجـرـائـيـ عـمـلـيـ بـهـ يـتـسـتـنـيـ لـدـارـسـ الـذـينـ أـنـ يـكـوـنـ قـادـراـ عـلـىـ تـفـعـيلـ سـيـاقـ الـزـوـاـيـاـ الـمـتـعـدـدـةـ.ـ ذـلـكـ

<sup>25</sup>) مـتـىـ، 39 / 5.

<sup>26</sup>) مـتـىـ، 44 / 5.

<sup>27</sup>) فـضـلـتـ، 33 - 34.

<sup>28</sup>) مـ.ـنـ، صـ 88.

<sup>29</sup>) كـونـانـكـ، تـوـمـاـ دـوـ، Thomas de Konink)، الـجـهـلـ الـجـدـيدـ وـمـشـكـلـةـ الـثـقـافـةـ، تـرـجـمـةـ مـنـصـورـ الـقـاضـيـ، الـمـوـسـسـةـ الـجـامـعـيـةـ لـلـدـرـاسـاتـ وـالـنـشـرـ، بيـرـوـتـ، لـبـانـ، طـ 1ـ، 2004ـ، صـ 255ـ.

أنه "إذا كان الإنسان قادرا على النظر من زاويته الخاصة. وفي نفس الوقت النظر من زاوية أخرى فأنه يحصل على رؤية كاملة وعلى فهم واضح"<sup>30</sup>. ولقد طبق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هذا المنهج مع الآخر حيث أنه لم يلغ زاوية النظر الأخرى لما قال لقريش "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ"<sup>31</sup>. أو حين كتب في بداية صحيفة صلح الحديبية باسمك الله متنازلاً عن كتابة بسم الله الرحمن الرحيم احتراماً لعقيدة غير المسلم آنذاك. إن فرض دين معين على شخص ما، هو غرور واستكبار وهو تحريف لمقام الإنسان العاقل.

إنّ من مقتضيات الضابط المنهجي أن تصبح الاختلافات بين الأديان وسليتنا لمزيد البحث العلمي ولمزيد المقارنة ولمزيد التأمل الفلسفى. فعلّ ذلك يساعدنا على الاقتراب من بعضنا البعض وعلى فهم بعضنا البعض بشكل أوضح وأعمق. أمّا عندما تصبح الأديان مجرّد مؤسسات طائفية أو وسائل لأغراض ما، أو أشكال ظاهرية، فإنّها ستبتعد عن المعنى العميق للدين وتستصبح دافع إقصاء ومحالات تعصّب، والتعصّب يحول دون المعرفة ويعتال الوفاق.

### (3) تجربة إصلاح التعليم الديني بتونس:

إنّ للنظام التّربوي التونسي مميزات نابعة من عدّة معطيات: دينية وتاريخية، ثقافية وحضارية، منذ محمد بن سحنون، وأبي الحسن القابسي مروراً بعد الرحمن بن خلدون وصولاً إلى رواد الفكرين الإصلاحي والتّحدّيّي وهو ما يحيل على عراقة حركات الإصلاح منذ القرن التاسع عشر. فقد استفاد هذا النّظام من القديم ولم يحدث قطيعة معه وسعى إلى بناء منظومة تعليم عصريّ عبر تمثّل أنماط تربوية مختلفة الروايد، والقيام ببنقدها من خلال المقارنة والتقييم بغية إثراء التجربة الذاتية والمحافظة على المخصوصية.

وقد شعر هذا النّظام في إصلاحاته الأخيرة بتحديّات العولمة، وبالتغيّرات الكبيرة التي شهدتها العالم في المرحلة الأخيرة، وبالتغييرات التي يمكن أن يشهدها في المستقبل القريب، فاعتبر انفتاح المقاربة التّربوية شرطاً من شروط نجاحها واستمرارها، واعتبر التّكوين المستمرّ ضرورة ملحة لجميع أطراف العملية التعليمية التّعلّمية، خاصة المدرّسين وإطار الإشراف الإداري والبيداغوجي، وذلك بغية الوصول إلى مرحلة الاحتراف، مستفيداً من المقاربة التي ترى أن الفرد في أي جماعة مدرك لارتباط نشاطه بنشاط غيره وهو يسعى - بحكم طبيعته - إلى تكيف هذا النّشاط تبعاً لما ارتضته الجماعة لنفسها من أهداف ومقاييس ومُثُل حتى يحقق رضا الجماعة عنه وتقديرها له كعضو نافع<sup>32</sup>؛

<sup>30</sup>) خان، حضرة عنبيات، م.ن، ص 280.

<sup>31</sup>) الكافرون، 6.

<sup>32</sup>) عفيفي، محمد الحادي، التربية والتغيير الثقافي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط 5، 1980، ص 4.

على اعتبار أنّ بيئه الفرد التي يحيا فيها تملأ بمقومات الحياة والدوام والبقاء، وهي كذلك ترتكز دور الإنسان باعتباره كائناً مثقفاً وتمدّ جسور الترابط بين التربية والمجتمع والنجاعة في الحياة.<sup>33</sup>

لقد أجريت إصلاحات هامة على نظام التعليم في تونس منذ عدّة عقود، وتعدّ مسألة تنسيب المعرفة الدينية من المسائل الضرورية والهامة لتعديل العقليات وتجاوز العديد من الصعوبات. وقد قامت عملية إصلاح التعليم الديني في تونس على مراعاة الجوانب التالية :

#### أ) تأصيل عملية الانفتاح:

لا شكّ أنّ فكرة الانفتاح فكرة إسلامية أصلية بالنظر إلى ما ورد في القرآن والسنة من نصوص تدعو إلى التعامل مع الآخر إذا لم يصدر عنه ما يسيء إلى الإسلام وال المسلمين. جاء في القرآن الكريم: "لَا يَئِهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الْذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ".<sup>34</sup> فالملاحظ أن موادعة غير المسلم داخلة في مقصد من مقاصد العبادة كما ألمع إليه الإمام فخر الدين الرازي حين عرّف العبادة.<sup>35</sup> ونرى أنّ الجدل والحوارات الذين نادى بهما القرآن، وحدد ضوابطهما الأخلاقية بما من أهم الحوافر للتعامل مع الآخر والسعى إلى تبادل المنافع والخبرات المنهجية والعلمية معه. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك في الآيتين الكريمتين: "وَجَادِلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنٌ"<sup>36</sup> ، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَئْقَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ خَبِيرٌ".<sup>37</sup>

#### ب) اعتبار نظام المعرفة الدينية نظاماً منفتحاً:

إنّ المدخل الأساسي لفهم خلفيات افتتاح العلوم الدينية على بقية العلوم نظرة الإسلام إلى العقل، وإقراره لمبدأ الاستنباط والاجتهاد عبر مباشرة النص الديني. وانطلاقاً من أن العلوم الدينية علوم نشأت عبر التفاعل مع بقية العلوم التي يتتجها الفكر البشري ليقارب النص القرآني بمعرفة متنامية سببها العلم والإيمان، فإنه لا مانع من الاستفادة من إنتاج العقل البشري ضمن إطار الثقافة الإسلامية التي تعدّ الفضاء الأمثل للتلاقي الفكري. ومن ينظر في العلوم التي نشأت حول نصوص القرآن والسنة يلاحظ أنّ جانب الاجتهاد والإضافة في الفروع أمر لم يتحرّج منه علماء الإسلام بل إنّ

<sup>33</sup>) اعتمد الإصلاح التربوي التونسي الأخير على المقارنة بأنّمنظمة تربية عرفت بكفاءة مردودها وبكونها مرجعاً لجميع النظم التربوية في العالم .

وزارة التربية والتّكوين، الخطة التنفيذية لمدرسة الغد، المطبعة الرسمية، تونس، 2002، ص 37 - 43.

<sup>34</sup>) المحتسبة، 8.

<sup>35</sup>) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1981، م.

<sup>36</sup>) التحل، 125.

<sup>37</sup>) الحجرات، 13.

علم الكلام مثلا - الذي قام على خلفية الحجاج - لم يعدم البحث في الأصول وفي تعدد التأويلات التي قامت حولها.

#### ج) رصد عملية الإصلاح في إطار الغايات النهائية :

لا يمكن أن تكون عملية الإصلاح معزز عن حاجات المجتمع ومطالب العصر وهو ما سيساعد على مواكبة عصر العولمة بوعي وقدرة على الحضور والفعل والتكيف الإيجابي مع المحافظة على الخصوصيات والدفاع عن مصالح الأمة. ولا يتحقق ذلك إلا بما يلي :

- ربط مناهج التعليم بمحاجات التنمية الشاملة.
- ربط محتويات المناهج بمطالب العصر.
- افتتاح المؤسسة التعليمية على البيئة والمحيط.
- تطوير الطرق التعليمية والمناهج الدراسية باستمرار.
- إبراز الطرق الذاتية والإبداعية والتفاعلية.

#### د) الإفادة من العلوم الإنسانية:

لما كان القرآن صارما في اعتبار الإنسان قيمة عليا في هذا الوجود، كان من الطبيعي ربط هذا الكائن المكرم بعملية التقدم عبر الاستخلاف الهدف الفاعل، فتصبح العلوم التي مدارها الإنسان ونشاطه ذات شأن في بلورة تصور عميق للحقيقة البشرية، وتنسيب المسائل المرتبطة بالإنسان وفكره بما يمكن من تجاوز التعصب والانغلاق والتقليد الأعمى ويحدّ من غلواء الطائفية والمذهبية. إن تدریس العلوم الإنسانية بالتوافق مع العلوم الدينية يجعل الاختلاف سمة بشرية نسبية ينظر إليها بموضوعية تفتح الطريق أمام التعديل والإضافة. إن الاستفادة من نظريات حقوق الإنسان وتطوير علم المقاصد الشرعية لبتان ضروريتان في إعادة تشكيل الوعي الإسلامي المعاصر.

#### هـ) الإفادة من الطرق البيداوجية الحديثة:

ليست التربية الحديثة معزز عن حاجات المجتمع لأن الفرد في أي جماعة مدرك لارتباط نشاطه بنشاط غيره وهو يسعى - بحكم طبيعته - إلى تكيف هذا النشاط تبعا لما ارتضته الجماعة لنفسها من أهداف ومقاييس<sup>38</sup>. وبناء على ذلك فإنّ شكل التربية القديمة ونمطها وأسلووها في صبّ المعلومات وحسو الأدمعة بالمعرف الجاهزة لم تعد مواكبة للأوضاع المجتمعية الجديدة ولا لصورة الحياة ونمطها في العصر الحديث. ومن الملاحظ أن اعتماد الحفظ والتسميع والتكرار والنقل والتقليد دون غيرها من الطرق قد أدى إلى قتل روح الابتكار لدى المتعلمين فتحولوا إلى نوع سيء من المواطنين، ذلك النوع

<sup>38</sup>) عفيفي، محمد المادي، م.ن، ص 4.

الذي لا يصلح إلا للائتمار والطاعة وتنفيذ الخطط الجاهزة، لأنهم لا يعيشون إلا على فنات أفكار الآخرين<sup>39</sup>، وهو ما يعيق التقدم المنشود.

وخلالصـة القـول: إن تجربـة إصلاح التعليم الديـني بتونـس تجـربـة جـديـرة بالـبحث والـدرـاسـة لأنـها لم تـأتـ من فـراغ بل قـامتـ على أسـسـ علمـيـةـ وـمـوـضـوعـيـةـ تـأـخذـ بـعـينـ الـاعـتـباـرـ الثـابـتـ وـالـمـتـحـولـ فيـ الشـفـافـةـ الإـسـلامـيـةـ وـتـبـتـبـىـ المـضـامـينـ الـمـشـرـقـةـ فيـ التـرـاثـ الإـسـلامـيـ معـ ضـرـورةـ الـانـفـتـاحـ عـلـىـ التـرـاثـ الإنسـانـيـ وـالـقـيمـ الـكـوـنـيةـ.

---

<sup>39</sup>) سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة عالم المعرفة، عدد 198، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1995 م، ص 114.